على عهد الاحتلال

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الثامن

في بعذران

— هل ترى اولئك الخيالة في قعر الوادي ، ياديب ؟

— نعم ! وانا منذ دقائق اراقب هذه الاشباح . ولكن نظرك انفذ من نظري . فحدّق ، يا غر ، حدّق الى جهة الشمال ، واجتهد في ان تضبط عددهم .

— واحد . . . اثنان . . . ثلاثة فرسان ، وراجل .

— هذا ما خيّل اليَّ ولكن ما رأيك في وجهتهم ؟

— اراهم تركوا طريق الوادي . . . هاهم متجهون نحونا . . . سلاحك ! وكن مستعدًّا .

— لا تخف ! فالطبنجات محشوّة ، والذخيرة وافرة . واني لأرمينّهم امامك واحدًا واحدًا من هذا «المجال» !

ثم اخرج ديب طبنجته من زنّاره ، وبعد ان اجالها بين يديه مأخوذًا بلمعان حديدها ، جلس القرفصاء ووضعها على ركبته ، وعيناه لا تزالان عالقتين بالخيّالة والراجل .

ففعل غر فعله ، وقال :

— ولكن لا تطلق الرصاص قبل ان تتحقق مَن القادمون !
— لا تخف !

* * *

كان نمر وديب من رجال الامير جهجاه الامناء وكلها على القصر واهله ، وعهد اليها في حمايته من الطوارئ ، مدّة غيابه . فكانا يقضيان النهار طائفين حول السور يتفقدان المنافذ ، ويرميان بطرفيهما الى الاودية القريبة ، فيبصران كلّ صاعد في المسالك المختلفة التي تؤدّي الى القصر . حتى اذا غابت الشمس عيّنا الحرس لكل مركزه ، وتناوبا السهر ؛ فكان نمر يفتش النقاط من المغرب الى انتصاف الليل ، وديب من تلك الساعة حتى الصباح .

وكانا في ذاك المساء قد رتبا الحرس ، واقبلا يجولان حول القصر . فلفتت نظرهما تلك الاشباح في الوادي ، فرقفا يتبادلان الآراء ، ويستعدان للدفاع . . .

وما هي هنيهة حتى قال نمر ، وهو لا يرفع بصره عن الخيّالة :

— انظر الى الجواد الأيسر . كأني به الدهماء فرس سيدنا . فالحركة حركتها ، والسرج سرجها ، والرشمة رشمتها .

— اذًا فيكون سيدنا قد رجع من الدير ؟ ولكن ذانك الفارسان من يكونان ؟

— لا أعلم !

— والرجل ؟

فحدّق قليلًا ثم قال باشًا :

— لقد صدق ظنّي ! هو سيدنا الامير . انظر الى الدهماء تختال وتصهل ، اذ ابصرت اعالي بعذران . وانظر الى الفرس الوسطى فكأنها نعامة ، فرس الشيخ قعدان رحمة الله عليه . اما الراجل المتنقل على الحصى تتقل الغزلان فمن يكون سوى ذاك الغريب فرحات . لقد اشتقنا اليه والى احاديثه . لعنك الله يا ديب ! كدتَ ، والله ، تطلق النار على سيدنا . . .

فقهقه ديب وردّ طبنجاته الى زناره ، وقال :

— بل لعنك الله انت ! فانت قلت لي احمل سلاحك واستعدّ .

وبعد ان استكفّ نمر ثانيةً ، قال باهتمام :

— اظنّ ان الفارس الاوسط هو الامير بشير بعينه . فاتركني هنا يا ديب ، واسرع الى القصر ، فنبه الخدم كي يكونوا على استعداد تام لاستقبالهم . وادخل قبلغ الست وصول الامير مع ضيفين لم نعرفهما بعد .

* * *

وما هي دقائق حتى وصل الخيالة الى امام القصر فترجلوا . واسرع نمر فقبل يد الامير بشير ، فيد الشيخ سلوم ، فيد سيده الامير جهجاه . فسأله هذا :

— كيف صحة الست ؟

— احسن يا سيدي ! فقد قامت بالامس ، وتمشّت قليلًا في الدار !

فالتفت الامير بشير مستفهماً . فقال الامير جهجاه :

— سعدى مريضة من ثلاثة اشهر . وقد اقلقني مرضها كل القلق . فهي لا تسعل ، ولا تأرق ، ولا تشكو الماً موضعياً . ولكنها دوماً متكسرة العضلات ، مرتخية الاعصاب ، فاقدة الشهيّة للطعام . وقد تنتابها نوبات تذهب بحواسها مدّة . ولم نقدر على وجود علاج لحالتها . بل لم يعرف احد ان يشخّص مرضها . وقد أثر فيها نبأ وفاة الشيخ قعدان ، وجزعت لبعد غانم . فهي طريحة الفراش منذ شهر . وبدور لا تفارقها ليل نهار . وقد صرت قلقاً على حالة الصبية ايضاً ، لأن العناء بلغ من صحتها النحيفة مبلغاً بعيداً . فاحاط السهر عينيها بدوائر الأسى ، ونزع الهزال اللون من وجنتيها ، وخدّد الهمّ وجهها ، حتى انك تنكرها لأول مشاهدة . هذا وقد بذلنا فوق الجهد في ردعها عن السهر ، ومنعها من ملازمة امها دون جدوى . . . فما لي غير الصبر ، وليس لي رجاء الّا بالله سبحانه يفعل ما يشاء وكما يشاء !

فاجاب الامير بشير وقد هدّجت صوته نبرات الأسى :

— تكون النتيجة على سلامة ان شاء الله . فتعود الست الى صحتها ، وتعود النضارة الى وجه بدور . . .

ثم اطرق صامتاً مفكراً بجانب الامير جهجاه ، مكبراً عزمه تجاه الرزايا ،

معجباً بصبره عن افشاء ما يجيش في ذاك الصدر الواسع.

وكانوا قد وصلوا الى رتاج القصر. فأسرع بعض الخدم لاستقبالهم ، ينفضون عنهم الغبار ، بينما كان غيرهم يتعرّفون بالخيول الى الاصطبل . فساروا توًّا الى ردهة الست سعدى يعودونها ويسألون عن صحتها.

فراع الامير بشير ذاك الوجه الشاحب ، وذاك الجسم البادي هزاله بدقة اليدين ، المتسلسل تحت اللحاف ، على فراش وثير في زاوية الردهة الكبيرة . وكان الى جنب المريضة طرّاحتان ، قعدت بدور على واحدة منها وامامها طبلية صغيرة عليها كأس كانت تذيب فيها بعض الدوا. . وجلس على الطراحة الثانية الخوري يوسف ، راعي الضيعة ، يسلّي المريضة تارة بسرد نوادره العديدة وحوادث حياته الطويلة الملأى بالعبر والحكم ، وطوراً بعظاته ونصائحه بالاستسلام الى مشيئة الله ، والاتكال على عنايته الالهية . وكانت عينا بدور تتنقلان من وجه امها النحيل ، الى لحية الخوري الطويلة البيضاء ، وشاربيه الكثيفين الصادرة من خلالها تلك النبرات المطمئنة التي كانت تقع على ما ثار من دوافع اليأس في اعماق نفسها فتسكّنها ، وتلك الكلمات العذبة والحكم السامية التي كانت تضع بلسماً لطيفاً على جروحها الدامية فتضمدها. فتردّد دائماً ، عن قصد وعن غير قصد ، ما كان يعلق بذهنها من كلام الخوري : « اللهم ! لتكن مشيئتك لا مشيئتنا ! »

اما المريضة فاستقبلت الزائرين بوجه طلق ، وبشاشة ظاهرة. ووقف الخوري وبدور . فاسرع الأميران والشيخ فقبّلوا يد الخوري الجليل ، فقبل هذا الامير جبهاه في رقبته ، وبارك الجميع . ثم سلّموا على الست سعدى ، وعلى بدور . وجلسوا يسألون عن صحة الجميع ، ويسلّون المريضة باحاديث كلها دافعة الى الامل بالشفاء القريب.

وهم على تلك الحال ، واذا بفرحات يدخل ببطء ، وقد قصم الحزن ظهره ، فيقبّل يد الخوري ، ثم يكبّ على فراش الست سعدى فيقبل يدها صامتاً ذارفاً دمعتين احتست بجرارتهما على ظهر كفها النحيلة ، ثم يسلّم على بدور ، ويتراجع فيجلس جانباً في زاوية الردهة.

وكان الامير بشير قد استراح من دهشته فاستعاد رباطة جأشه ، واقبل يروي عما جرى له ولاصحابه في عكا . ويكثر من الكلام عن غانم واحواله الحسنة وصحته الجيدة ، وانه كلفه ايصال القناطير المقنطرة من السلام والاشواق ، وانه عما قريب يأتي قصر بعذران فيقضي فيه حياته . وكان الامير يلاحظ ان حديثه عن غانم يبعث الجميع على الارتياح ، فاخذ يمدد موضوعاته ، ويتوسع في اقسامه ، ويراجع بعض الاشياء ، والكل مسرورون بذلك . حتى تكاثف الليل . فنبه الامير جهجاه الى ضرورة تناول العشاء ، ودعا الحاضرين الى القبو المجاور

فرّت سحابة دكناء امام عيني الست سعدى لشعورها بأنهم سيتركونها وحدها ، وهي لم تكتفِ بعد من اخبار غانم . واحسّ الامير بشير بما بدا عليها من القلق فقال :

— وما ضرّنا لو اكلنا هنا عند الست سعدى !

فوافق الجميع على هذا الاقتراح . وامرت بدور الخدم ، فهيأوا معدّات العشاء . وترتّبع الجميع حول المائدة ، الا الخوري يوسف ، فاعتذر بانه تعشّى في « القلّاية » قبل مجيئه .

* * *

وبعد ان اكتفوا من الطعام وغسلوا ايديهم ، تحوّلوا كل الى مركزه ، فاخذوا بمتابعة الحديث عن غانم واحواله في عكا ، ومظاهر الجزّار وما في بلاطه من الخدم والعساكر والكتّاب . وعن الحالة الحاضرة في الجبل ، وموقف الامير من حزب المعارضة ، وما يتوقعه من المعارك التي قد تحدث قريباً في المتن حيث يجمع الامراء اللمعيون رجالهم ، وفي جبيل حيث لجأ ابناء الامير يوسف .

وكأنّ الأمير اراد ان يطمئن الخواطر ، فقال :

— على ان كل هذه المعارك التي نقدّر انها ستحدث ، تبدو لي احقر من ان تؤثر في مجرى اعمالنا في المستقبل . فما علينا الّا ان نستميل اللمعيين ، ونضرب النكديين الضربة القاضية ، ونسرع بايقاع الارهاب في حزب ابناء الامير يوسف ، فتكفل لنا الظفر بهمة ابطالنا المغاوير كالأمير جهجاه ، ورأي مدبّرينا الحكماء كالشيخ سلوم .

فتبسم الجميع ، وأمنوا على كلامه.

وكان الامير لا يكاد يرفع نظره ، طول تلك الليلة ، عن بدور ، فيروعه منها ذاك اللون الترابي الذي أبدل بنضارة خدّيها ، وذاك التكاسل في اعضائها الذي كاد ينسي همتها السابقة وحياتها الظاهرة في جميع حركاتها . وكان يثقل اجفانها ذبول غير معهود يُرخي الاهداب فيكاد يطبقها ، لولا ما تقوم به من الجهد لفتحها ، فتبدو عيناها ، وقد احاطت بهما هالتان صفراوان ، وجمدت مقلتاهما فجفّ ماؤهما ؛ فاذا نظرتا ، التفتا دفعةً واحدة وشخصتا الى هدف غير معروف . يظهر على كل ذلك شيء من الطمأنينة الصامتة ؛ والاستسلام الكلي الذي قد يدفع الناظر الى القلق وتوقع اليأس الوخيم ، لولا ما كان يُرى في قسمات الوجه من توتر اعصاب ، وفي الشفتين من انطباق عنيف يدلّ على حزن شديد مكتوم بقوة ارادة تضبط العاطفة ان تشرد ، وتمنع الصدر ان ينفجر بالانات.

وكانت الفتاة ، اذا أُعرض عنها اثناء الحديث ، تتيه عيناها في فضاء المنزل ، كأنهما تفتشان في الافق البعيد عن شيء غير منظور مجذوبتين بلمعان غير معروف ؛ واذا خُوطبت تنتفض بسرعة ، وتلتفت جملة ملقيةً على مكلمها بصرًا لا يستقر الّا جامدًا ؛ واذا تكلمت ، تتدافع كلماتها بنبرة متقطعة . لا تجيب الا قلقة ؛ ولا تلقي سؤالًا الا حذرة ، كأنها توجس خيفةً من سماع جوابه.

فايقن الامير ان في نفسها الفتية من الاضطراب ما قد يكون دونه اضطراب حالة الجبل ، وان في شعورها الرقيق من الايجاس ما قد يفوق الايجاس من تلك المعارك المقبلة . فشغلت حالتها باله كل الشغل ، حتى انه لم يفكر بعد ذاك الا بما عسى ان يكون السبب المؤثر في ذاك القلب الحسّاس ، وبما عسى ان يعيد الطمأنينة والسلام الى تلك العاطفة المضطربة . . .

(لها بقية)

شذرات

المحصولات الداخلية في مناطق الانتداب سنة ١٩٢٧

لبنك سورية ولبنان الكبير نشرة دورية تحمل الفوائد الكثيرة من مالية، واقتصادية، وتجارية، وقد ظهر مؤخرًا عددها الرابع لسنة ١٩٢٧، فرأينا ان نقتطف منه بعض المعلومات عن محصولاتنا الوطنية، فنذكر شيئًا منها في هذا العدد من المشرق وشيئًا في العدد القادم:

الزراعة

الحالة الزراعية العامة

هطلت الامطار بكثرة في الزمن الموافق للحراثة موزعة بطريقة موافقة ايضاً في جميع مناطق الانتداب فنتج ان الحالة الزراعية سنة ١٩٢٧ كانت تبشر بخير النتائج. وقد وافقت هذه النتائج التقديرات في اكثر المناطق فكانت الغلات كافية مرضية. على ان بعض التقلبات الجوية الخاصة ببعض المواقع كزيادة الرطوبة في السهول، وزيادة الجفاف على الشواطئ في الربيع مع ظهور بعض الحشرات الطفيلية الضارة بالزرع والثمر كالسونة في شمالي سورية، احدثت اضرارًا جمة. اما مساحة الاراضي المحروثة فزادت قليلًا عنها في سنة ١٩٢٦، لا سيما في منطقة جبل الدروز حيث كان التقدم محسوساً بسبب اخماد الحركة الثورية التي نشبت سنة ١٩٢٥.

الحبوب

بلغت زراعة الحبوب السنوية اي القمح والشعير في سنة ١٩٢٧، حسب احدث التقديرات مساحة ٧٦٠,٧٠٠ هكتار وقد كانت تبلغ في السنة الفائتة ١٩٢٦ مساحة ٧١٦,٥٣٥ هكتارًا. وهي تُقسم كما يلي: ٤٩٥,٥٠٠ هكتار للقمح تقابل ٤٦٣,٨٩٥ هكتارًا في سنة ١٩٢٦، و ٢٦٥,٢٠٠ هكتار للشعير تقابل ٢٥٢,٦٤٠ هكتارًا في سنة ١٩٢٦.

وبفضل هذه الزيادة في البذار، ثم بفضل ما اتخذ من الاحكام لابادة

الحشرات الطفيلية وحفظ الزرع من اضرارها ، فاقت محصولات الحبوب هذه السنة محصولات السنة الفائتة . فبلغت محصولات القمح ٣٩٦,٩٠٠ طن ، يقابلها ٣٧٢,٧٨٠ طناً في سنة ١٩٢٦ ؛ وبلغت محصولات الشعير ٣٣٣,٦٥٠ طناً يقابلها ٢٣٥,٤٢٢ طناً في سنة ١٩٢٦ . ولا بد هنا من الملاحظة ان الزارع السوري في شمالي سوريا يميل شيئاً فشيئاً الى ابدال زراعة القمح بزراعة الشعير ، وهو بذار ينجو من شر السونة بفضل سرعة نموه وبلوغه . وفضلاً عن ذلك فان الشعير له بين الصادرات مركز حسن ، ومنفذ فسيح وافر الربح في الخارج. وقد بلغ ما فاق الحاجة من الشعير في السنة الفائتة ٣٣,٤٤٠ طناً فصدّرت الى الخارج وبلغ ثمنها على التقريب ٣٢,٥٠٠,٠٠٠ فرنك.

اما زراعة الحبوب الصيفية كالذرة البيضاء والصفراء فكان تقدمها بطيئاً جدًّا بخلاف ما تقدم ذكره من الحبوب . فبينما كانت مساحة الارض المزروعة بهذه الحبوب ٧٩,٢٨٠ هكتارًا في السنة الفائتة لم تبلغ هذه السنة الّا ٦٣,٩٨٠ هكتارًا. وقد لوحظ التأخر ذاته في المحصولات فقد بلغت هذه السنة ٨٠,٦٥٠ طناً وقد كانت السنة الفائتة ٩٨,٨٠٠ طن . على ان محصول هذه السنة ١٩٢٧ يزيد عن محصول سنة ١٩٢٥ الذي لم يبلغ الّا ٥٩,٧٠٠ طن.

هذا ولما كانت الحكومة لا تتراجع امام شيء في سبيل تعزيز الزراعة ، وهي اهم مورد لثروة مناطق الانتداب ، رأت ضعف اجناس الحبوب الوطنية فاهتمت باستبدالها بغيرها من الاجناس القوية. ولهذا عرضت على الزارعين اصنافاً من القمح كانت استوردته من تونس والجزائر.

القطن

ان مساحة الارض التي خُصصت لزرع القطن في سنة ١٩٢٧ لم تتجاوز ٢٥,٠٠٠ هكتار يقابلها في سنة ١٩٢٦ ، ٣٢,٠٠٠ . اما سبب هذا النقص فناتج عن الظروف الاستثنائية التي جعلت المزارعين ينصرفون عن القطن الى زرع الحبوب ، ومن ذلك ظهور الجراد وهبوط اسعار القطن في السوق العالمية. على ان الذين ظلوا واثقين وثابروا على زرعه نالوا نتائج غاية في الحسن . فقد بلغت محصولات هذه السنة ١٩,٠٠٠ قنطار يقابلها ١٧,٠٠٠ في سنة ١٩٢٦

شارع الاب شيخو

في الجلسة الاخيرة التي عقدها المجلس البلدي البيروتي اقترح احد الاعضاء ، الوجيه رزق‌الله بك ارقش ، اطلاق اسم الاب شيخو على احد الشوارع الهامة في العاصمة ، اقراراً بما له من الفضل الخالد على البلاد . وقد استطرد رزق الله بك قائلاً: « ان الاب شيخو هو خالد بما خلّفه من الآثار العلمية ! فلا حاجة به الى مـا اقترحت لتخليد ذكره وكل ما ابتغي ان أخلّد اقرارنا بجميل الرجل ومعرفتنا لفضله ». فقبل هذا الاقتراح بالاجماع وسينفذ في اول فرصة.

فنحن نشكر للمجلس وللعضو المفضال رزق الله بك هذه العاطفة الشريفة.

تمثال للمطران يوسف الدبس

وردتنا نشرة مفادها ان قد تأسست في بيروت ، برعاية صـاحب الغبطة السيد الياس الحويك البطريرك الانطاكي ، لجنة غايتها اقامة تمثال للطيب الذكر المطران يوسف الدبس اعجاباً بآثاره ، واكباراً لمآثره الخـالدة . وقد سرّنا ان يشترك وجهاء البلاد ومفكروها ، على اختلاف نزعاتهم ، في تحقيق هذه الفكرة الحسنة . اخذ الله بأيديهم ، وقدّرهم على تعزيز الفضل في كل زمان ومكان.

لا جديد تحت الشمس!

اكثرت جرائـدنا في الشتاء المـاضي من ذكر الامطار والزوابع . وكان الكثيرون يردّدون ان شتاء السنة فريد في برده وعواصفه . على ان شتاء سنة ١٧٥٦ كان اهول زوابع واشدّ برداً حتى ان نهر العاصي تجمّد « وقـد تعطّلت الآلات الصناعية ». وفي كانون الثاني من سنة ١٧٧١ زحلت الصخور من الجبال فوق كفرنبرخ (الشوف) فهدمت عدة بيوت في مزرعة مجاورة ، وقتلت جملة اشخاص. وفي ١٦ نيسان من سنة ١٧٧٦ ، تساقطت الثلوج بكثرة حتى غطت لبنان بكامله من اعلى الامم الى شاطئ البحر. وبعكس ذلك فان صيف سنة ١٧٨٥ كان كثير الجفاف حتى ان « نبع العاصي نشف منه اكثر من النصف ».

هذا ويمكن المطـالع ان يرى كثيراً من هذه المعلومات اللاذة والمفيدة في كتاب قيّم نشر مؤخراً بعناية سيادة المطران قطّان ، وسنعود الى ذكره.